كتب التراجـــم

بمناسبة كتاب روزفلت(*)

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قد تستهوى الإنسانَ سيرة عظيم من العظماء ، أو أديب من الأدباء ، أو عالم له فى ميدان البحث العلمى مجال ، أو مغامر له فى الكشف مصاولة ، فيقرأ عنه ويتتبع حياته ، ويجد فى مثله العالى ما يستحق العرض والتجلية . ثم يحمله الإعجاب به والاتصال به ـ من قريب أو بعيد ـ على الكتابة عنه والترجمة له ووصف الظروف التى كونته ، والأقدار التى أحاطت به ، والأحداث التى ألمت بعصره ، والمبادئ التى تحدرت عنه

وقد يكون ذلك العظيم ـ موضوع الترجمة ـ شرقياً فيجد الكاتب الشرقى فخراً فى الكتابة عنه والترجمة له ، مدفوعاً إلى ذلك بعامل الاشتراك فى الجنس أو اللغة أو الدين . ويجد الكاتب الغربى فى الترجمة له إنصافاً لعظمته وإظهاراً لفضله . وقد يكون ذلك العظيم غربياً فيجد الكاتب الشرقى لذة وفائدة لبلاده وممرناً لعرض المثل الصالح والأسوة الحسنة

وكتابة التراجم المطولة ، والدراسات الشخصية المعتدلة المنصفة لا تتقيد بوطن ولا جنس ، ولا شرق ولا غرب ، ولا دين ولا مذهب

فأميل درمنجهم كتب عن حياة النبى محمد ، وأميل لدويج كتب عن حياة المسيح ، وفيليب جواداللاً كتب عن حياة نابليون الثالث ، وماريوس أندريه كتب عن حياة خريستوف كولمب ومغامراته فوق أتباج المحيط ، والسير والتر سكوت كتب عن حياة نابليون بونابرت ، وتوماس كارليل الإنجليزى ترجم لفردريك شيلر الشاعر الألمانى ، وآرم ستروبج كتب عن الذئب الأطلس أتاتورك ، وكرابيتس كتب عن ابراهيم باشا واسماعيل باشا المصريين

لهذا ليس عجيباً فى باب التراجم أن يكتب مصرى عن غير مصرى ، أو يترجم عربى لحياة غير عربى كما صنع الدكتور

(*) كتاب روزفلت للأستاذ فؤاد صروف طبع مطبعة المعارف

الخليل للرسول خبزاً يابساً وقال : كل فما عندى غيره . وما دمت أجده فلا حاجة بى إلى سليمان . فقال الرسول : فماذا أبلغه ؟ فقال له :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنى غير أنى لست ذا مال
شحاً بنفسى أنى لا أرى أحداً ... يموت هزلاً ولا يبقى على حال

والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه

ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

وكان سفيان بن عيينة يقول : من أحب أن ينظر إلى رجل من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل . وقال تلميذه النضر ابن شميل أقام الخليل فى خص بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال الطائلة

ومن أوابد حكمه :

وقبلك داوى المريض الطبيب ... فعاش المريض ومات الطبيب
فكن مستعداً لدار الفنا ... فإن الذى هو آت قريب

وبالجملة فقد كان الخليل إحدى حسنات هذه الأمة وقراً من أقارها ، ودرة فى تاج مفاخرها

وفاته

اختلف المؤرخون فى السنة التى انتقل فيها الخليل إلى جوار ربه ، فذهب جمهورهم إلى أنه توفى سنة ١٧٠هـ . وقال آخرون سنة ١٧٥هـ وقال بعضهم سنة ١٦٠هـ وأغرب خطأ وقع فى ذلك هو قول ابن الجوزى فى كتابه شذور العقود أنه مات سنة ١٣٠هـ وهو منقول عن الواقدى . قال المحقق ابن خلكان أنه خطأ قطعاً والصواب ما أثبتناه أولاً

وكانت وفاته فى البصرة مسقط رأسه فكانت البصرة مشرق هذا الكوكب الوقاد ومغربه . وقد ضمته تربتها إلى من ضمت من أعلام العلم وأقمار الفضل ونجوم الهدى ورجال التقى الذين حلوا الآداب بأنفس الحلى ، ونهضوا بالمعارف الإنسانية إلى مراتب العلا ، فكانوا للعلم جمالاً ، وللتاريخ أبهة وجلالاً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ولقاهم فى دار رضوانه تحية وسلاماً

(بغداد) طه الراوى

محمد حسين هيكل مع جان جاك روسو ؛ وعبد الرحمن بدوى مع نيتشة واشبنجلر وغيرهما من أعلام الفكر والفلسفة ؛ وحسن محمود مع ديستويفسكى ، وفؤاد صروف مع روزفلت

وقد يقال إن كتاب الأستاذ فؤاد صروف عن فرانكلين روزفلت هو من قبيل السياسة . وهو كلام فيه كثير من الحق . ولكن ما أحوجنا نحن قراء العربية إلى كتب من هذا الطراز فإن الفقر يضرب على مكتبتنا العربية فى هذا الباب لولا ما أخرج العقاد عن سعد زغلول ، وما أخرج عبد الرحمن الرافعى عن الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، وما صنعه محمد فريد أبو حديد مع السيد عمر مكرم ، وما كتبه كريم ثابت عن فؤاد الأول

إلا أن هؤلاء استوحوا وطنهم واستمدوا من تاريخ بلادهم وترجموا لأعلام رجالهم ، ولكن فؤاد صروف استشرف إلى ما وراء العباب ، واستكفّ ما خلف السحاب ، فكتب كتابه الأول عن تشرشل (وقد كتبتُ عنه فى حينه بالرسالة الغراء) وأخرج كتابه الثانى عن روزفلت . ولكن ذلك لا ينقص من شأن كتابه ، بل على الضد من ذلك يرفع من قيمته ويُغلى من بضاعته . لأن حياة روزفلت وسيرته وقصة كفاحه هى شطر من حياة الديمقراطية وقصتها . ومن منا اليوم لم تشغله قضية الديمقراطية ولم تفتنه قصتها ؟ ومن منا لم تذهب نفسه اليوم حسرات على المحنة التى تبتلى الحرية اليوم بها وتصلى بنارها ؟

ولا يرجع إعجاب فؤاد صروف بشخصية روزفلت إلى زمن اشتراك أمريكا فى الحرب ، ولا إلى اندلاع الشرارة الأولى لها حتى يقال إنه حب طارئ وإعجاب عارض ؛ ولكنه حب متمكن وإعجاب قديم دفين يرجع إلى أكثر من عشرين عاماً حين رشح الرئيس روزفلت نفسه لوكالة الجمهورية . فقد تابعه المؤلف منذ ذلك الحين وشغف به وتحمس له وتقصى كل نبأ عنه أو خبر له ، وطوى نفسه على متابعته والقراءة عنه حتى تهيأ له اليوم أن يخرج كتاباً قيما فى مائتين وأربعين صفحة من القطع الكبير

ولقد كانت تجرى كتابة التراجم فى اللغة العربية على نسق محدّث مثل يعنى بالسرد والقص والحكاية والجمع والترتيب والتأريخ ولا يعنى بالدراسة والسيكلوجية والتحليل والنظرة العامة أو المقارنة . وكتب المؤرخ ابن الجوزى عن العمرين (ابن الخطاب وابن عبد العزيز) . وكتاب يوسف بن شداد عن صلاح الدين الأيوبى خير مثال لهذا النسق العتيق

أما اليوم فقد تغيّر المجرى واستقام النسق وتأثر كتاب العربية بكتاب الفرنجة فى هذا الباب ، وأخذوا عنهم طرق الدرس ومناهج البحث ، وظفرت المكتبة العربية بما كتب هيكل عن النبى محمد وأبى بكر ، وبما كتب العقاد عنهما وعن عمر وسعد زغلول ، وبما كتب الرافعى عن مصطفى كامل ؛ وفؤاد صروف عن روزفلت

وكتابة التراجم لها فى الآداب الأوربية اعتبار أى اعتبار ، ولا يكاد يخلو إنتاج أديب ملحوظ من ترجمة شخصية أعجب بها وتوفر على درسها ، مهما كان لون هذه الشخصية ومزاجها ومجالها الحيوى فى السياسة أو العلم أو الفن . فلويس دييه يكتب عن ديكارت الفيلسوف ، وهنرى بيرو يكتب عن روبسبيير ، وفرانسوا مورياك عن راسين ، وراؤول أرنو عن كاميل ديمولان ، وأميل لدويج عن روزفلت

ومن كتب التراجم ما يتحدث فيه المرء عن نفسه ويترجم لذاته . وهذه التراجم غير كتب المذكرات التى يدون فيها رجل ممتاز حوادثه اليومية كمذكرات اللورد جراى . وقد تكون هذه التراجم الذاتية قطعاً أدبية ممتازة كترجمة (لى هانت) لنفسه وهو من كتاب الإنجليز فى القرن التاسع عشر ، وترجمة دى كوينسى التى كانت سابقة على كتابه المشهور « اعترافات آكل أفيون » ، وترجمة جيبون المؤرخ الإنجليزى التى حكم لها النقاد بالامتياز فى نوعها وأسلوبها الذى يعد بحق مزية ذلك المؤرخ العظيم

والترجمة للأناس تتطلب فناً غير ترجمة الحيوان الأعجم . لأن ترجمة الناس تقتضى الاختلاط بهم أو السماع عنهم أو القراءة لهم أو رؤية آثارهم . أما الترجمة للحيوان فتقتضى ملاحظة أقوى وجلداً أكثر ، وعلماً أغزر ، وإحساساً أعمق . وتوفر الكثير من هذا فى موريس مترلنك ، فترجم لحياة النحل وحياة النمل

بما لا يتهيأ لكاتب عادى أن يصنعه . ولكن لدوبج ترك ترجمة الحيوان إلى ترجمة الذوات ... فكتب عن « النيل » كتابه الذى جسّد فيه هذا النهر الخالد كأنما كان يترجم لإنسان

ولكتابة التراجم سبيلان : سبيل الاتصال الشخصى بالمترجم له والاختلاط به والعمل معه أو تحت ظله ونوع ذراه ؛ وسبيل القراءة عن المترجم له وذلك لبعد الزمان بين الكاتب وبينه كما صنع ارفنج ودرمنجهم عن النبى ، أو لبعد المكان كما صنع فؤاد صروف مع روزفلت اليوم

وإذا جمع كاتب التراجم بين قرب الزمان والمكان من المترجم له كان ذلك أقرب إلى الصدق وأدنى إلى الحق ، وخاصة إذا كان الكاتب غير ميال إلى الهوى فى حكمه أو الغرض فى رأيه . ولكن بعد الزمان وحده خير ضمان للاعتدال فى الحكم لبعد الكاتب عن المؤثرات والمغريات

فسيرة ابن شداد عن صلاح الدين هى أقرب السير زماناً ومكاناً من المترجم له . فالمؤلف معاصر لصلاح الدين وقاضى عسكره وناظر أوقاف بيت المقدس فى عهده . وهى سيرة صادقة إلا أن فيها بالطبع بعض الميل

* * *

جرت عادة القراء أن يبدأوا الكتب من أول فصولها . ولكننى قرأت « روزفلت » من الفصل الثالث . وهو عندى خير فصول هذا الكتاب القيم . فهنا سيرة زكية من النضال الكفاح . هنا قوة تسرى من الكتاب إلى القارئ فتوحى إليه أن الضعف ليس عدة الرجال ولا أداة الأبطال . هنا جسد اصطلح عليه المرض ومشى فيه الشلل ، ولكن عزيمة صاحبه كانت أقوى من أن تخضع للحوادث . هنا سيرة يقرؤها المريض فيصح ، والضعيف فيقوى ، والهيابة النكس فيتقدم

وقد تمد فصول الكتاب الخمسة عقل القارىء بألوان من العلم والسياسة والمعرفة بأحوال العالم الجديد ونظمه ودستوره ومجلسيه التشريعيين وحكومته ونظام اقتصاده ؛ ولكن الفصل الثالث يمد قلب القارئ بالشجاعة ويملؤه بالقوة ويجعله موصول الآمال ، حتى فى الساعات الحرجة واللحظات العصيبة ، لأن الإرادة القوية تغلب كل حرج ؛ وتتحكم فى كل شدة . فهذا الرجل المشلول لا ينطوى على نفسه كمن تقعدهم الأدواء ولكنه طُلعة دءوب ، فكيف تصده آفة جسدية عن تحقيق مطامعه القوية ؟

ومزية كتاب « روزفلت » أنه ليس من الأدب المحض وحده أو الفن الصراح وحده ، فليس من نوع النثر الفنى المقصود لذاته ؛ ولكنه فكرة قبل أن يكون كتاباً ، ومعنى قبل أن يكون لفظاً ، فهو طراز عال من كتب السياسة الأدبية التى اتجه إليها الكتاب فى العصر الحديث . فلم يحاول فؤاد صروف فيه أن يكون عالماً فحسب أو سياسياً فحسب أو أديباً فحسب ، ولكنه كان مزيجاً من ذلك كله . فهنا علم بالنظم الأمريكية ، وهنا معرفة بتيارات السياسة الدولية ؛ وهنا إحاطة واسعة بأشتات التاريخ الذى وعاه المؤلف فى صدره ؛ وهنا أدب يتجلى فى تعبير مترسل مستقيم المنطق صحيح التسلسل ؛ وهنا ريشة مصور لا أقول إنها عنيفة ولكنها صادقة ترسم الحدود وتوضح المعالم فى بيان وجلاء

وهو كتاب يذكرنى بكتاب أندريه موروا الفرنسى فى تاريخ انجلترة

محمد عبد الغنى حسن

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ١٠٠ قرش ، و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات : الثانية والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد .